دائـــرة الشـــؤون الإســـلامية والعمـــل الخيـــري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department

حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

رحم الله رجلاً

(الأعمال التي دعا النبي ﷺ لعاملها بالرحمة)

بقلم
د. عبد الحكيم الأنيس
إدارة البحوث

رحم الله رجلاً

الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

حقوق الطبع محفوظة

لدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+
الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي
mail@iacad.gov.ae www.iacad.gov.ae

الحمد لله، وصلى الله وسلَّم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه. وبعد:

فقد قال تعالى في محكم التنزيل مخاطباً رسولَه الكريمَ ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال ﷺ: « إنما أنا رحمةٌ مهداةٌ »، وقد صَدَقَ عليه الصلاة والسلام إذ شملتْ رحمتُه العالمين بأكملهم مسلمهم وكافرهم، وكانت الرحمةُ للمسلمين أخصَّ وأشملَ، ومَنْ تتبَّع حياةَ رسول الله وأقوالَه وأفعالَه يجد أنّ كلَّ حركةٍ أو سكونٍ منه ﷺ مشتملة على الرحمة، مبنية عليها، واليوم نتحدَّثُ عن جانب من جوانب الرحمة التي ادَّخرها النبيُّ لأمته، لنا نحن الذين لم نُدرك حياتَه ﷺ، فقد دعا لنا بالرحمة كما دعا للأنبياءِ من قبل.

ففي الحديث: « رحم اللّهُ موسى لقد أُوذي بأكثرَ مِنْ هذا فصبر ».

« رحم اللّهُ يوسف إنْ كان لذا أناةٍ حليماً، لو كنتُ أنا المحبوس ثم أُرسِلَ إليَّ لخرجتُ سريعاً ».

« رحم اللّهُ أخي يحيى حين دعاه الصبيانُ إلى اللعب وهو صغيرٌ قال: أللعبِ خُلِقتُ؟ ».

كما دعا ﷺ لأصحابه الكرام دعاءً خاصاً وعاماً، ففي الحديث:

« رحم الله الأنصارَ، وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار ».

وأيضاً: « يرحم الله المستقدِمين منا والمستأخِرين ».

« فارحم الأنصارَ والمهاجرةَ ».

أيها الإخوة:

لقد دعا لنا نحن كذلك، ولكن لقاءَ أعمالٍ نقومُ بها، فينبغي علينا جميعاً أنْ نهتم بهذه الأعمال، حتى ينالنا دعاءُ النبي ﷺ، ولا شك أنَّ دعاءَهُ مقبولٌ عند الله في حياته وبعد مماته، ومَنْ قام بعملٍ من هذه الأعمال فهو مرحومٌ - بإذن الله-.

فما هي هذه الأعمال؟

إنّها أعمالٌ تربويةٌ، وعلميةٌ، واجتماعيةٌ، وتعبديةٌ.

وتعالوا بنا إلى رسول الله لنسمعَ منه، فماذا عن **الأعمال التربوية؟**

يقولُ ﷺ: « رحم اللهُ امرأً تكلَّمَ فغنمَ، أو سكتَ فسلمَ »، وجاء في لفظ آخر: « رحم اللهُ عبداً قالَ فغنمَ، أو سكتَ فسلمَ »، وفي لفظ آخر: « رحم اللهُ عبداً قال خيراً فغنمَ، أو سكتَ عن سوءٍ فسلمَ ».

إنَّ اللسان من أخطر أعضاء الإنسان، ولهذا جاء هذا الحديث النبوي يدعو بالرحمة لمن يملك نفسَهُ فلا يتكلمُ إلا بخير فيغنم، ويتجنَّبُ كلَّ سوءٍ فيسلم، ولو أننا ملكنا ألسنتَنا لقضينا على كثيرٍ كثيرٍ من مشاكلنا ومشكلاتنا، وبدون ذلك فإنَّ خطراً كبيراً يُسيطرُ على مجتمعنا في حاضره ومستقبله، ولهذا فيومَ قال معاذُ بن جبل لرسول الله: وإنّا لمحاسبون على ما نتكلَّم به يا رسول الله؟ أجابه الرسولُ بشدةٍ، قال له: « ثكلتك أمُّك يا معاذُ، وهل يكبُّ الناسَ على مناخرِهم في جهنَّم إلا حصادُ ألسنتِهم؟ ».

فراقبوا الله - أيها المسلمون - عند كلِّ كلمةٍ تتكلمونها، فإنْ كانت ممّا يُؤدِّي إلى خير فانطقوها، وإلا فاحبسوها قبل أنْ تحبسَ قائلها في عذاب الله.

ومَنْ مَلَكَ لسانَه كان له إلى الجنة سبيلٌ مضمونٌ: يقول ﷺ: « مَنْ يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنَّة ».

ومَنْ مَلَكَ لسانَهُ استقامَ إيمانُهُ: يقول ﷺ: « لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُهُ حتى يستقيمَ لسانُهُ ».

ونأتي إلى الأصحاب الكرام والسلف لنستنيرَ ببعض هديهم، وكلماتهم الناضرة العاطرة:

هـذا عبـدُ اللّه بن مسـعود يقول: واللّه الذي لا إلـه إلا هو ما على وجه الأرض شيء أحوج إلى طول سجنٍ من لسان.

وهذا حكيمُ الأمة أبو الدرداء يقول: أَنصِفْ أذنيك مِن فمك، فإنما جُعِلَتْ لكَ أذنان وفمٌ واحدٌ لتسمعَ أكثرَ ممّا تتكلَّم به.

وهذا مخْلَد بنُ الحسـين أحد رجال السـلف يقـول: ما تكلمتُ منذ خمسين سنة بكلمةٍ أريدُ أنْ أعتذرَ منها.

وما أجمل ما يقول الشاعر:

احـذرْ لسـانَكَ أيُّهـا الإنسـانُ ... لا يـلـدغنَّـكَ إنّـه ثُـعـبـانُ
كم في المقابرِ من قتيلِ لسانِهِ ... كانتْ تهابُ لقـاءَه الشجعـانُ

اللسـان -أيها الإخـوة- له آفاتٌ كثيـرةٌ، ومِنْ أخطـر آفاته الكلامُ فيمـا لا يعنـي، وهنا نفهـمُ قول النبي ﷺ: «من حُسْـنِ إسـلام المرء تركُه ما لا يَعنيه».

وقيـل للقمـان الحكيـم: مـا بلغ مِـنْ حكمتك؟ قـال: لا أسـأل عمّا كُفيته، ولا أتكلَّم بما لا يعنيني.

وقد رُوي أنه دخل على داود عليه السـلام وهو يسردُ درعاً، فجعلَ يتعجـبُ ممـا رأى، فأراد أن يسـأله عن ذلك، فمنعتْهُ حكمتُه فأمسـكَ،

فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: نِعْمَ الدرعُ للحرب. فقال لقمانُ: الصمتُ حكم وقليل فاعله.

ومن آفاته: الغيبة، هذا الداء الذي لا يَكاد يَسْلمُ اليومَ منه أحد.

يقول زينُ العابدين بن الحسين بن علي: إياك والغيبةَ فإنها إدامُ(طعام) كلاب الناس.

من آفات اللسان: النميمة وهي نقلُ الأقوال، وإيقاعُ الفتنة بين الناس.

يقول النبيُّ ﷺ: « لا يدخل الجنّة قتّات » أي نمّام.

ولكي نقضي على هذا المرضِ الفتّاك فإنّ على المنقول له أنْ يلتزمَ ستةَ أمور:

- أولا: أنْ لا يُصدِّق الناقل، لأن النمّام فاسقٌ مردودُ الشهادة.
- ثانياً: أنْ ينهاه عن ذلك ويَنصَحه.
- ثالثاً: أنْ يُبغضَه في الله فإنه بغيضٌ عند الله.
- رابعاً: أنْ لا يظنَّ بأخيه الغائب السوء.
- خامساً: أنْ لا يَحمله ما حُكِيَ له على التجسُّس والبحث.
- سادساً: أنْ يكتمَ ما نُقل له فلا يحكيه.

ومن الطريف ما جاء عن سـليمان بـن عبد الملك الأموي فقد قال لرجلٍ: بلغني أنكَ وقعتَ فيّ، وقلتَ كذا وكذا. فقال الرجلُ: ما فعلتُ، فقال سليمان: إنّ الذي أخبرني صادق. فقال الرجلُ: لا يكونُ النمّام صادقاً. فقال سليمان: صدقتَ اذهبْ بسلام.

وأجملُ من هذا الموقف وأدقُّ ما جاء عن التابعيِّ الجليل وهب بن منبه قاضـي صـنعاء في عهد عمر بن عبد العزيز فقد قال له رجلٌ: إنَّ فلاناً شتمك. فقال كلمةً ما أروعها وأغلاها، ما أدقَّها وأنفَسَها! قال له كلمة أخزاه بها وأخجله، وقطع دابرَهُ ودابرَ النمّامين المفسـدين الظالمين، قال له: ما وجدَ الشيطانُ رسولاً غيرك؟!

وما أحسن قولَ إبراهيم بن المهدي:

إنْ كان يُعجبـك السكوتُ فإنَّه ... قد كان يُعجبُ قبلك الأخيارا

ولئن ندمتَ على سكوتِك مرةً ... فلقد ندمتَ على الكلام مرارا

إنَّ السكوتَ سـلامةٌ ولـرُبَّمـا ... زرعَ الكـلامُ عـداوةً وضـرارا

ونعـود إلى موضـوعنا فأقول: إنَّ مـن متممات الكلام على اللسـان التذكيـر بالمحافظـة على نظافة المجتمع المسـلم مـن كل أطرافه، وقـد نُسـب إلى النبي ﷺ قولٌ هـو: « رحم الله امرَأً جَـبَّ الغِيبةَ عن نفسِهِ » أي قَطَعَ الغيبة عن نفسه، وهذا لا إسنادَ له فليس هو بحديث،

ولكن ما حواه من توجيهٍ سليمٌ سديدٌ، ففي الوقت الذي يُحافِظُ فيه المسلمُ على لسانه فإنه يتأكدُ عليه أنْ يُحافظ على ألسنة المسلمين، وأن لا يقف مواقفَ التُّهم.

وكيف يُحافِظُ على ألسنتهم؟ إنه يُحافظُ على ألسنتهم عندما يتصرفُ تصرفاً لائقاً، عندما لا يخرجُ عن قواعد الإسلام، عندما يزنُ كلَّ تصرفاتهِ بميزان الشرع، حينها يقطعُ الغِيبةَ عن نفسه، فلا يستطيع أحدٌ أن يناله بسوء، ولعله حينها يكسب أجرين: أجر التزامه، وأجر محافظته على ألسنة الآخرين.

وليس هذا فحسبُ فقد دعا النبيُّ بالرحمة للمتسامحين المتساهلين في معاملة الناس، يقول ﷺ: « رحم اللّهُ عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى ».

ذلك لأن الدِّين هو المعاملة، فمَنْ كانت معاملتُهُ مبنيةً على التسامح والتساهل وكرم الأخلاق فقد حاز نصيباً وافراً من الدين، ودخل في عداد المرحومين، ببشارة النبي ﷺ، وما أحوجنا في عصرنا هذا إلى هذا المبدأ الإسلامي الرفيع في تعاملنا ومعاملاتنا، بعد أنْ سيطرت الأنانية، وضيقُ الأخلاق وبذاءةُ اللسان، وبعد أن كثر في أسواق الدنيا الغشُّ والخداعُ وأكلُ أموال الناس بالباطل.

« رحم اللّهُ عبداً سـمحاً إذا باعَ، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى - أي وفّى ما عليه -، سمحاً إذا اقتضى - أي طَلَبَ قضاءَ حقه - ».

ثم ماذا يا رسول اللّه؟

يقـول ﷺ: « رحم اللّهُ عبداً كانتْ لأخيه عنده مَظلمةٌ في عِرْضٍ، ومـالٍ فجاءه فاسـتحلَّه قبل أنْ يُؤخذَ وليس ثَمَّ دينـارٌ ولا درهمٌ، فإنْ كانـت له حسـناتٌ أُخذ من حسـناته، وإن لم تكن له حملـوا عليه مِنْ سيئاتهم ».

وهـذا من كمال رحمته ﷺ ومزيد شـفقته على أمتـه، إنَّ المظالم إذا لم يُتسـامحْ فيها في الدنيا فإن حسـابَها يوم القيامة عسيرٌ: يقول ﷺ: « الدواويـن ثلاثة: فديـوانٌ لا يَغْفِرُ اللّه منهُ شـيئاً، وديوانٌ لا يَعْبأُ اللّه بهِ شيئاً، وديوانٌ لا يَتْرُكُ اللّه منهُ شيئاً.

فأمَّا الديوانُ الذي لا يَغفِرُ اللّه منْهُ شيئاً فالإشْراكُ باللّه.

وأمَّـا الديـوانُ الـذي لا يَعْبَأُ اللّه به شـيئاً فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَـهُ فيما بينَـهُ وبيـنَ ربِّه، مِنْ صَـومِ يومٍ تَركَهُ، أو صـلاةٍ تَركَها، فـإنَّ اللّه يَغْفِرُ ذَلِكَ إنْ شاءَ ويَتَجَاوَزُ.

وأمَّـا الديوانُ الذي لا يَترُكُ اللّه منهُ شـيئاً فَمَظالِمُ العبادِ بَينَهُم، القِصاصُ لا مَحالَةَ ».

إذا كان التعاملُ في الدنيا بالدينار والدرهم فالتعاملُ هناكَ بالحسنات والسيئات، فإذا شتمتَ أحداً، أو اغتبتَهُ، أو تكلمتَ في عِرْضِهِ، أو أكلتَ مالَهُ، ولم تستسمحْ منه هنا فإنه سيَأخذُ عوضَ ذلك من حسناتك، فإن لم تكن لك حسناتٌ سيُلقى عليك مِن سيئاتِه، وأيٌّ منا محتاجٌ إلى سيئاتٍ في ذلك اليوم الرهيب؟ جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « بينما رسولُ الله ﷺ جالسٌ، إذ ضحكَ حتى بدتْ ثناياه، فقال عمرُ: يا رسولَ الله، بأبي أنتَ وأمي، ما الذي أضحككَ؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يديْ رب العزة، فقال أحدُهما: يا رب خُذْ لي مظلمتي من هذا. فقال الله تبارك وتعالى: رُدَّ على أخيك مظلمَتَه. فقال: يا رب لم يبقَ مِن حسناتي شيء. فقال: يا رب، فيَحمل عنِّي مِن أوزاري. قال: ثم فاضتْ عينُ رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: إنَّ ذاك ليومٌ عظيمٌ، يوم يحتاجُ الناس إلى مَنْ يحملُ عنهم مِنْ أوزارِهم ».

لذلك دعا النبيُّ ﷺ بالرحمة لمن تنبّهَ وتيقَّظَ، وحاسب نفسَه، واستحلَّ ممّن ظلمَهُ بمالٍ أو عِرض، إننا يوم القيامة فقراء إلى مزيدِ حسنةٍ، فكيف بنا إذا فقدنا الحسنات، وتحمَّلنا سيئات الآخرين؟

وقـد رُوي عـن النبـي ﷺ أنـه سـمَّى يـومَ القيامـة بيـوم الفقـر والحاجـة، وحضَّ المسـلمين على الاسـتعداد له فقـال: « رحم اللّهُ امرأً اكتسبَ طيِّباً، وأنفقَ قصْداً، وقدّم فضْلاً ليوم فقرِه وحاجتِه ».

« رحـم اللّهُ امرأً اكتسـبَ طيّباً » أي حـلالاً، لأنَّ اللّه طيبٌ لا يقبل إلا طيبـاً، « وأنفـقَ قصْـداً » أي بتدبيـرٍ واعتـدالٍ مـن غيـر إفـراطٍ ولا تفريطٍ ولا تبذيرٍ، لأنَّ المبذِّرين كانوا إخوان الشياطين، « وقدَّمَ فضْـلاً ليوم فقرِه وحاجتِه »، أي أنفقَ وتصدّقَ بما يفضل عن حاجته وحاجة عياله، ليراه أمامَهُ يومَ فقره وحاجته يومَ القيامة.

ثم ماذا يا رسول اللّه؟

يقول ﷺ: « رحم اللّهُ والداً أعانَ ولدَه على برِّه ».

وكيف يُعينه على برِّه؟

بوسـائل كثيـرة: باختيـار الأم الصـالحة، بالتربيـة الإسـلامية الحقَّة، باختيار الاسـم الجميل، بتغذيته بالحلال، بمعاملته معاملة قائمة على النُّصح والحبِّ والحنان.

وبعكس هذا فإنه سـيَكون مقصِّـراً، وربما كان هو السبب في عقوق ولده له، وبالنتيجة سيكون محروماً من دعاء النبي ﷺ له.

وهـذا كلُّه -أيها الإخوة - عامٌّ في حقِّ المـرأة والرجل، فهل خصَّ النبيُّ ﷺ المرأة بشيء؟

الجواب: نعم، يقولُ ﷺ: « رحم اللّهُ المتسرولاتِ من النساء » أي اللاتي يلبسـن السراويل بقصـد الستر، فهو لهنَّ سُـنَّة مؤكَّدة، وسببُ هـذا الحديـث ما جـاء عن أبي هريرة قـال: بينما النبـيُّ ﷺ جالسٌ بالمسـجد إذ مـرّت امـرأةٌ علـى دابة فلمـا حاذتْهُ عثرتْ بهـا الدابة فسقطتْ، فانكشفتْ، فأعرض النبي ﷺ فقيل: إنَّها متسرولة يا رسول اللّه، فقال: « رحم اللّهُ المتسرولات من النساء ».

بعد هذه الجوانب التربوية ننتقل إلى **الجانب العلمي**.

فقـد دعا النبيُّ ﷺ لمَنْ يعملُ على إشـاعة العلم، وبثِّه بين الناس لينتفعوا به، فقال: « رحم اللّهُ امرَأً سـمِعَ منّا حديثاً فوعاه، ثم بلَّغه مَنْ هو أوعى منه فرُبَّ مبلَّغ أوعى مِنْ سامع ». وهو دعاء يشمل كلَّ مَنْ يبلِّغ أحاديثَ النبي إلى الناس إلى يوم القيامة، ذلك أنَّ الأمة في كل وقت وحين محتاجة إلى أقوال النبي لتتعلَّم وتتهذَّب وتسمو.

وماذا عن **الجوانب الاجتماعية**؟

يقـول ﷺ: « رحـم اللّهُ المتخلِّلين والمتخلِّـلات »، ويقول: « رحم اللّهُ المتخللين من أمتي في الوضوءِ والطعامِ ».

والتخلُّلُ في الوضوء: هو إيصالُ الماء إلى منابت الرأس واللحية، وإلى ما بين أصابع اليدين والرجلين.

أمّـا التخلُّـلُ من الطعام: فهـو تنظيفُ الأسـنان من بقايـا الطعام، وهـو شـيءٌ مهمٌّ في حياة المسـلم الاجتماعية، لذلـك دعا النبي ﷺ بالرحمة لمن يفعلُهُ.

ثم نأتي إلى الجانب الأخير وهو **الجانب التعبُّدي** فقد خصَّ النبي بدعاء الرحمة مَنْ يقوم ببعض العبادات، لينبّه المسلمين إلى فضلها وشرفها، يقول ﷺ: « رحم اللّهُ امرأً صلَّى قبل العصر أربعاً ».

لقـد أوصـى اللّهُ عـز وجل بصـلاة العصـر فقـال: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وأوصـى النبـيُّ ﷺ بسُـنَّتها، وهي سُنَّةٌ غفل عنها كثير من الناس، وهجروها، وعلى فرض مَنْ يصليها فإنه يصلِّيها ركعتين.

ويقول ﷺ: « رحم اللّهُ رجلاً قامَ من الليل فصـلَّى، وأيقظَ امرأتَه فصلَّتْ، فإنْ أبتْ نضح في وجهها الماء، رحم اللّهُ امرأةً قامتْ من الليل فصـلّتْ، وأيقظـتْ زوجَها فصـلَّى، فإنْ أبى نضـحتْ في وجهـه الماء ».

ذلـك لأنَّ قيامَ الليلِ شـرفُ المؤمـن، وهو مِنْ أزكى الأعمـال، وأقربها إلـى اللّه تعالى، وقد دعا النبيُّ ﷺ بالرحمة لمن يقومُ ويُوقظ أهلَهُ

معه، لِما علم مِنْ فضل القيام وشرفِه، ولما علم من الرحمة التي تعم القائمين في تلك الساعات المباركة.

ويقـولُ عليه الصـلاة والسـلام: اللهـم ارحـم المحلِّقيـن. قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟

قـال: اللهـم ارحم المحلِّقين. قالوا: والمقصِّـرين يا رسـول الله؟ قال: والمقصِّرين.

وهـذا في الحجِّ والعمرة، وهو دليلٌ واضـحٌ على فضـلِ حلْقِ الشَّـعر على تقصـيره، والغانمُ من اغتنمَ هذا الفضـل، وسـعى إلى دخوله في دعاء النبي ﷺ الأول.

وماذا بعد يا رسول الله؟

يقول ﷺ: « رحم اللهُ عيناً بكتْ مِنْ خشية الله، ورحم اللهُ عيناً سهرتْ في سبيل الله ».

وبهذا الحديث نختمُ قولَنا، جعلنا اللهُ وإيّاكم ممّن تفيضُ عيونُهم بالدمع من خشـية الله، وممّن تسـهرُ عيونُهم في سـبيل حراسة أرض الإسـلام، وأهل الإسـلام، حتى ينالنا دعاءُ النبـيِّ ﷺ بالرحمة، وأنْ يكون الإنسانُ مرحوماً فتلك بشارةٌ عظمى، ومزيةٌ فضلى.

❁ ❁ ❁